الغزل والسمندل

نظرية الموضة والحداثة، قيمة الناتج مع المحسوب

علي بدر

إن الموضة أو الزي هو بلاغة اجتماعية وسياسية وثقافية أيضا، ولا تعبر المرأة عن نفسها معياريا إلا عبر بلاغة الموضة التي تقدم الدرجة القصوى من أنوثتها، حيث تحاول أن تطابق صورتها مع نموذج عارضة الأزياء أولا، ثم تطابق صورتها مع ممثلات السينما، ثم مع فتيات الإعلانات، ثم تطابق صورتها مع المحيطات بها، وبعد ذلك تحاول أن تجد ما يربط بين صورتها وبين النشر العالي الذي تقدمه مجلات الموضة مثل" "بوردة"، و"سيدتي"، و"الأناقة" وغيرها.

ويمكننا عبر النظر إلى الزي بوصفه سلسلة من العلامات، أن نقرأ لا العلامات فقط إنما نقرأ السياق الاجتماعي والثقافي أيضا، فالزي يبين على نحو أكيد وحاسم أن الشخص الذي يجلس أمامنا غني أم فقير، بدوي أم حضري، فلاح أم عامل، ويمكننا كذلك أن نقرأ عبر الزي سياقا سياسيا كاملا: فالملابس في الصين الشيوعية غير الملابس في روسيا السوفياتية، وهي غيرها في أميركا أو فرنسا، وهنالك الملابس الفلكلورية التي تميز كل شعب من الشعوب والتي تتطابق أحيانا مع المناخ أو مع العادات الدينية أو الثقافية الخ. ولكن ما هو مؤكد أن الغرب ومنذ بدايات القرن التاسع عشر عمم نموذجه الإزيائي بشكل كامل على العالم، فلم تعد الملابس الغربية حصرا على الغرب إنما تراها من أقصى أفريقيا إلى أقصى آسيا، من أمريكا اللاتينية إلى القطبين، لقد تقهقرت جميع الملابس الفلكلورية أمام القميص والجاكيت والبنطلون والتنورة والفستان والحقائب الجلدية، والتي تتغير كل عام تقريبا، وهذا ما جعل كل الشعوب تلاحق الغربيين بالموضة طالما إنهم لا يستطيعون ملاحقتهم بالصناعة.

لقد دخلت الملابس الغربية إلى العراق في القرن التاسع عشر، فالشاكردان وهو مفهوم وظيفي بيروقراطي في الدولة العثمانية كان يرتدي ملابس مميزة ويضع على رأسه القاووق، وبعد أن تخلت الدولة العثمانية عن القاووق لمصلحة الطربوش بقي استخدامه في بغداد زمنا، ولم تهيمن البذلة ذات التصميم الأوربي والطربوش إلا منتصف القرن التاسع عشر، وتحول هذا الزي إلى علامة سياسية تقابل العقال والعمامة، بل تحول الطربوش من مفهوم وظيفي بيروقراطي- لأن الموظفين هم الذين كانوا يرتدونه- إلى علامة سياسية بارزة، ولا سيما بعد الصراع الضاري بين العلمانيين التقدميين ورجال الدين أثر الانقلاب العثماني.

❖

يكشف الزي في الدولة الحديثة عن سياقين مضمرين، السياق الاجتماعي وهو القيمة المادية لمبادلته، ثمنه، نوع صناعته، وعن سياق سياسي، فعبر الزي تعرف الماهية السياسية العامة للدولة الحديثة: علمانية، دينية، شيوعية، الخ.. وهذا ما جعل الملك فيصل يفكر بتوحيد العراقيين- بعد أن وجدهم يرتدون أزياء مختلفة-من خلال السدارة، فهي وسيلة لتوحيد الأمة عن طريق علامة مميزة، وقد تضمنت أيضا محمولا خفيا، فقد مثلت بيروقراطية الدولة الملكية وجمهورها، وفضلا عن إنها كانت مرتبة اجتماعية وظيفية، كانت معبرة عن نسق سياسي ملكي، مما جعل النظام الجمهوري يسقطها بعد انتصاره وإطاحته بالملكية.

كانت نهاية الحرب العالمية الثانية إيذانا بتحول حضاري شديد في العالم، فقد حلت الحضارة الأميركية بقيمها ذات الطابع السريع والعملي محل الحضارة الغربية البيتورسكية والديكورية والمعقدة، وبدلا من نموذج البذلة (وربطة العنق) طرحت الحضارة الأميركية نموذجها، الجينز الذي كان يرتديه راعي البقر، والقميص الخفيف والقمصلة أو السويتر الجلدي، والحذاء الذي يشبه البسطار، إن هذا التحول الحضاري يتضمن قيمة سياسية جديدة، هو انتصار الحضارة الجديدة، سياسيا واجتماعيا أولا، ثم انتصار القيمة العملية للشخصية الأميركية العصامية ذات البساطة العارية.

❖

في الثلاثينات أرادت أمانة العاصمة أن توحد ملابس العربنجية في بغداد، وبدلا من اليشماغ أبو اللوزة الذي اشتهر العربنجية بلفه على رؤوسهم، والمعطف الكاكي الذي يرتدونه فوق الدشداشة كانوا يتدفأون به حتى في الصيف ! أمرتهم بارتداء البدلة الرسمية (القاط)، والسدارة على الرأس، فأضافت أفندية جددا للأفندية القديمة في بغداد، وقد أصاب اليهود مربحا كبيرا من ذلك القرار، فقد جمعوا من السوق جميع السداير القديمة وباعوها على الأفندية الجدد، بل إن هذا الأمر شجع بعض القندرجية على تحوير أحذية النساء (البوابيج) المصنوعة من قماش قريب من قماش السداير إلى سداير جديدة ولكن بأشكال مختلفة غير متقنة للأفندية الجدد، جعلت البغداديين يسمونها مازحين بالمشحوف أو بطابية الشيخ عمر.

المهم كانت أوامر أمانة العاصمة قاسية، ولكن هذا الأمر لم ينفع في التغيير الجذري، إذ أخذ العربنجية يرتدون (يشماغ أبو اللوزة) تحت السدارة، ويضعون الدشداشة القذرة في البنطلون بدلا من القميص، ويرتدون أيضا المعطف العسكري الذي اشتهروا به فوق الجاكيت، وهكذا تكتمل صورتهم الهوميرية مع القمجي الأسود الطويل الذي يسوقون به الخيل، وراحت أحلام أمانة العاصمة هباء بعد أن تصوروا أنهم سوف يجعلون من بغداد أجمل بتسمية العربنجي حوذيا، وباللابس ييشماغ أبو اللوزة أفنديا جديدا، وكانوا يتصورون أن العربنجي سيضع البايب الإنكليزي في فمه بدلا من السجارة اللف. أمام هذا التحدي الخطير غيرت أمانة العاصمة فكرتها وأرادت أن تستلهم التراث العربي والفكر العربي في تقديم نموذج أفضل للعربنجي في بغداد، وبدلا من السدارة والقاط أمرتهم بارتداء الخوذة العربية الكاكية على رؤوسهم، وبسبب ارتفاع أثمانها وقلة وجودها انتشرت صناعتها المحلية عن طريق تحوير (انجانات الخبز) وأصبحت أشكالها وألوانها مختلفة على رؤوس الأفندية الجدد، والأمر الثابت الذي لم يتغير إنهم أيضا أخذوا يرتدون يشماغ أبو اللوزة تحتها، والبعض الآخر حور اليشماغ فوق النجانة وقدم نموذجا جديدا لا تشبهه لا الانجانة ولا اليشماغ، وبهذا حصلت أمانة العاصمة على عربدة أزيائية أخطر من الأول، فتخلت عن فكرتها، ولكن العربنجية لم يتخلوا عنها فقد اشتروها بفلوس وتعودوا عليها، وصار كل واحد منهم يرتدي ما يصرف له وعلى هواه، بابوج سيدة على شكل سدارة، انجانة خبز على شكل قبعة، بينما كان اليشماغ أبو اللوزة هو القاسم المشترك مع الجميع.

ما يحيرني حقيقة هو متى تنطبق النظريات علينا، لكي يخرج الناتج متوافقا مع ما هو محسوب؟

اللغة العربية.. (الرولز رويس والفولكس فاغن)

أدوارد سعيد

ترجمة : احمد شرهاني

في النقاش الدائر حول الإسلام ، يطالب بعض العرب بإدخال بعض التعديلات أيضاً على لغتهم ، عبر الاختيار النهائي للغة العربية الفصحى التي تتحدث بها النُخب وبالتخلي عن اللهجات التي يتحدث بها عامة الناس. وقد أوضح أدوارد سعيد قبل وفاته في أيلول من العام ٢٠٠٣ ، عن سبب في هذه المطالبة التي تعكس تبخيساً غير عادي لغنى التجربة المعاشة التي تعبر عنها لغة الشارع.

كيف يتعين التحدث والكتابة بالعربية؟ يثير هذا السؤال الخوف ولاسيما أنه يتوقف على عوامل أيدلوجية لا تمت بصلة مع معيوش هذه اللغة بالنسبة للمتحدثين بها (المحليين). ولا أدري مم تأتى ذلك التصور الذي يرتئي أن اللغة العربية تعبر في جوهرها عن عنف مفزع يتعذر فهمه، ولكن غني عن البيان ان المجرمين ذوي العمائم على شاشات هوليود في سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي الذين يتحدثون إلى ضحاياهم بنبرة مقززة، وبتلذذ سادي، قد كان لها مالها في نشوء هذا التصور. وقد أسهم في ذلك تركيز وسائل الإعلام الأميركية على الإرهاب وهو تركيز يبدو أنه اختصر كل ما يتعلق بالعرب.

بيد أن البلاغة والفصاحة في الموروث الأدبي العربي تعودان في بدايتهما إلى ما قبل أكثر من ألف سنة. وكتّاب بغداد مثل الجاحظ والجرجاني، هم الذين صاغوا نساقاً مدهشة في تعقيدها، ومذهلة في حداثتها لفهم البلاغة والفصاحة والمجازات. ولكن عملهم ينهض على اللغة الكلاسيكية المكتوبة وليس اللغة المحكية اليومية. فقد هيمنت الأولى بفعل القرآن، وهو الأصل والنموذج المحتذى لكل ما جاء بعده في الموضوع اللغوي.

لتوضح هذه المسألة التي قلما يألفها الناطقون باللغات الأوربية الحديثة التي تتطابق فيها الصيغتان المحكية والأدبية؛ والتي أفتقد فيها الكتاب المقدس سلطته اللغوية.

يتحدث العرب جميعاً لهجة محكية تختلف اختلافاً كبيراً من منطقة لأخرى ومن بلد لآخر. لقد نشأت في عائلة كانت لغتها المحكية مزيجاً مما كان شائعاً استخدامه في فلسطين ولبنان وسورية: فهذه اللهجات الثلاث تحمل ما يكفي من الفوارق بحيث يمكن تمييز، مثلاً، أحد أبناء القدس عن آخر من بيروت أو حتى من دمشق. ولكن كان في وسع هؤلاء الثلاثة جميعهم أن يتفاهموا من دون جهد كبير.

وبما أنني قد التحقت بالمدرسة في القاهرة وأمضيت فيها الجزء الأكبر من شبابي، فقد كنت أتحدث . بطلاقة . اللهجة المصرية، وهي أكثر سرعة ولباقة من اللهجات الأخرى المُتعلمة في عائلتي. فضلاً عن ذلك، كانت اللهجة المصرية أكثر شيوعاً: فقد كانت الأفلام العربية كلها تقريباً والدراما الإذاعية، ثم المسلسلات التلفزيونية بعد ذلك تنتج في مصر. وقد أصبحت التعبيرات المصرية مألوفة على هذا النحو لأبناء العالم العربي برمته.

وفي سنوات السبعينيات والثمانينيات، أدت الطفرة النفطية إلى إنتاج دراما تلفزيونية في بلدان أخرى، باللغة الفصحى هذه المرة. وكان يعتقد أن هذه المسلسلات المتكلفة ملبساً والثقيلة. توائم ذوق المسلمين (والمسيحيين المحافظين، الأكثر تزمتاً عموماً)، وإنها ستكره الجمهور بالأفلام القاهرية المليئة بالحيوية. الا انها كانت تبدو لنا مضجرة على نحو ميؤوس منه. في حين كان المسلسل المصري. حتى إن كان مشغولاً على عجل، يسلينا أكثر من أفضل الاعمال الدرامية المنضبطة جداً في اللغة الفصيحة.

وفي أية حال. شهدت اللهجة المصرية وحدها انتشاراً كهذا، من بين سائر اللهجات. ولذا، قد أجد مشقة كبيرة في فهم جزائري يتحدث، فالفارق شاسع بين لهجات المغرب ولهجات المشرق. وقد أواجه الصعوبة ذاتها مع عراقي أو حتى متحدث لديه نبرة خليجية قوية. ولذا يستخدم البث الإذاعي والتلفزيوني الصيغة المعدلة والمستحدثة من الفصحى والتي يتيسر فهمها عبر أرجاء العالم العربي كافة، من الخليج إلى المغرب، سواء تعلق الأمر بالمناظرات أوالبرامج الوثائقية، والاجتماعات ومناقشات البحوث وخُطب الجوامع والخطابات في الاجتماعات القومية كذلك في اللقاءات اليومية بين مواطنين يتحدثون بتعبيرات مختلفة غاية الاختلاف.

كل شيء وضوم ، ومنطلق وتجريد.

على غرار اللاتينية بالنسبة إلى اللهجات الأوربية المحكية إلى منذ قرن، ظلت اللغة العربية الفصحى حاضرة وحية بما هي لغة مشتركة في الكتابة، على الرغم مما تكتنزه مجموعة من اللهجات المحكية من ثروات ضخمة، والتي لم تنتشر قط خارج بلد استخدامها، باستثناء اللهجة المصرية إضافة الى انها لا تمتلك ذلك الأدب الضخم الذي تحمله اللغة المشتركة الفصحى.

ويميل حتى الكتاب المُسمون بـ"المحليين" إلى استخدام اللغة الفصحى الحديثة ولا يستدعون العربية اللهجية إلا مصادفة. وعملياً، لدى الأشخاص المتعلمين استخدامان لغويان متمايزان جداً في الحقيقة لدرجة أنك، مثلاً، ستثرثر مع مراسل لصحيفة أو محطة تلفازية باللهجة، ثم، وفجأة، حين يبدأ التسجيل، تنتقل، ومن دون مرحلة انتقالية، إلى اللغة الفصحى الأكثر رسمية بطبيعتها والأكثر تهذيباً.

ثمة، بالطبع، صلة بين كلا العرفين اللغويين: فالحروف عادة متطابقة وترتيب الكلمات أيضاً. ولكن الاصطلاحات والتلفظ يختلفان بمقدار ما أن العربية الكلاسيكية . وهي الصيغة الفصيحة للغة، تفتقر إلى أي أثر من اللهجة المحلية أو المناطقية، وتبرز بوصفها أداة رنانة، مصاغة بعناية، ورفيعة القدر. ومرنة مرونة استثنائية، و و تضفي صياغاتها فصاحة عظيمة. وإذا ما استخدمت العربية االفصيحة على نحو صحيح، فليس لها نظير في دقة التعبير، وفي الطريقة المدهشة التي تسمح بها تنوعات الأحرف الفردية في كلمة (في نهاياتها على نحو خاص)، بالتعبير عن أشياء متمايزة.

وهي أيضاً لغة ذات مركزية بلا شبيه بالنسبة إلى الثقافة العربية: فمثلما كتب يورسلاف ستيكفش: " مثل فينوس، ولدت (اللغة العربية) في حالة من الجمال الكامل، واحتفظت بهذا الجمال على الرغم من تقلبات التاريخ، وومؤثرات الزمن ". وبالنسبة للطالب الغربي " توحي اللغة العربية بفكرة جاذبية شبه رياضية . (من الرياضيات). فالنظام الكامل للحروف الثلاثة الصامتة كجذر للكلمات، والأشكال المتزايدة من الأفعال مع دلالات قاعدتها، والصياغة الدقيقة لاسم الفعل والمفاعيل. كل شيء يمثل وضوحاً، ومنطقاً، ونسقاً وتجريداً " ولكنها أيضاً موضوع مشاهدة جميل، في صورتها المكتوبة. ومن هنا يتأتى الدور المركزي المستدام للخط العربي، وهو فن تركيبي من أعلى درجات التعقيد، وأكثر قرباً من الزخرفة وفن الأرابيسك منه إلى الإيضاح الخطابي.

في الأيام الأولى من حرب أفغانستان، وعلى قناة الجزيرة الفضائية، كانت تدور نقاشات وتقارير مصورة يتعذر إيجادها في وسائل الإعلام الأميركية. وما كان مثار دهشة، هو المستوى الرفيع من الفصاحة، (على الرغم من تعقيد المسائل المتناولة)، الذي يتمتع به المشاركون الذين كانوا يواجهون أسوأ المصاعب. حتى أولئك الذين يثيرون النفور أكثر من غيرهم، بما فيهم أسامة بن لادن. فقد كان الأخير يتحدث بصوت رخيم، بلا تردد وبلا أدنى تلكؤ، وهو أمر يحسب حسابه مؤكداً لجهة تأثيره، والحال نفسه أيضاً، وبمعيار أقل، مع غير العرب كالأفغانيين، برهان الدين رباني وحكمتيار، واللذان استخدما اللغة الفصحى بيسر بارز، من دون تمكنهما من اللهجات العربية.

لا ينكر أن ما يسمى اليوم العربية الحديثة الفصيحة ليست هي تماماً اللغة التي كتب فيها القرآن. إذ يفصل بينهما أربعة عشر قرناً من الزمان. وعلى الرغم من أن الكتاب المقدس مازال نصاً يُدرس كثيراً فإن لغته تبدو قديمة وهي إذاً يتعذر استخدامها بالنسبة للحياة اليومية. و تبدو كشعر رنان إذا قورنت بالنثر الحديث.

وتتأتى اللغة العربية الفصيحة الحديثة من سيرورة التحديث التي ابتدأت في إبان العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر - حقبة النهضة - وكان ذلك. في الدرجة الأولى. منجز مجموعة من الرجال بسورية ولبنان وفلسطين ومصر (ومن بينهم عدد كبير من المسيحيين). وقد انهمكوا بصورة جماعية على تحويل اللغة العربية بإضفاء شيء من التعديل والتبسيط للنحو الأصلي كما تقعّد في القرن السابع.من خلال التعريب (أو الاستعراب). كان المقصود هو إدخال كلمات مثل "القطار و"الشركة" و"الديمقراطية" و "الاشتراكية" كلمات لم تكن بالطبع موجودة في الحقبة الكلاسيكية. كيف؟ عن طريق الاستعانة بالإمكانيات الضخمة للغة بفضل طريقة القياس التقنية القواعدية. لقد فرض هؤلاء الأشخاص مفردات جديدة تمثل حالياً نحو ستين في المئة من اللغة الفصيحة. وهكذا قادت حقبة النهضة إلى ضرب من الانعتاق من النصوص اللاهوتية، بإدخالها خلسة علمنة جديدة. في ما كان العرب يقولونه ويكتبونه.

القواعد العربية متقعرة ومغربة بمنطقها لدرجة أن تلميذاً، أكبر سناً يدرسها على نحو أسهل لقدرته على تذوق حذاقة استدلالها. ومن باب المفارقة لا يتوافر أفضل تدريس للعربية إلا لغير العرب في المعاهد اللغوية بمصر وتونس وسورية ولبنان وفيرمون.

لما دفعتني حرب العام ١٩٦٧ العربية الإسرائيلية إلى الانخراط في السياسة، عن بعد، أدهشني أمر قبل كل شيء: السياسة لا تسير بالعامية، أو لغة السواد الأعظم كما تسمى العربية اللهجية، وإنما بالفصحى الدقيقة والرسمية. وسرعان ما أدركت أن التحليلات السياسية في الاجتماعات والملتقيات تقدم بطريقة تظهر معها أكثر عمقاً مما هي عليه. واكتشفت، بخيبة أمل كبيرة، أن ذلك صحيح صحة تنطبق خاصة على مقاربات لغة الماركسيين وحركات التحرر في ذلك العهد: فتوصيفات الطبقة والمصالح المادية، ومصالح رأس المال والحركة العمالية كانت تعرب وتوجه، في مونولوجات طويلة، ليس إلى الشعب، ولكن إلى مناضلين آخرين متخصصين.

وكان الزعماء الشعبيون، مثل ياسر عرفات وجمال عبد الناصر، والذين عقدت لي صلات بهما، يستخدمان على نحو أفضل بكثير من استخدام الماركسيين لها، والذين كانوا أفضل تعليماً أيضاً من هذين الزعيمين. وكان عبد الناصر يتحدث بوجه خاص إلى الجماهير من أنصاره باللهجة المصرية، المطعمة بجمل رنانة من الفصحى. أما عرفات، فبما أن الفصاحة العربية تعتمد كثيراً على المنسوب المأساوي، فإن لديه سمعة خطيب أدنى من المتوسط: فأغلاط تلفظه وتلكؤاته وتعمياته الكلامية الخرقاء تبدو، بالنسبة للأذن المتعلمة، اشبه ما تكون بفيل يتجول في مخزن للخزف.

في القاهرة، تمثل جامعة الأزهر إحدى أقدم مؤسسات التعليم العالي في العالم، وهي تعد أيضا معقل الأرثوذكسية (المحافظة) الإسلامية و عميدها يمثل السلطة الدينية الأعلى بمصر السنية. يضاف إلى ذلك أن الأزهر يدرس . في الدرجة الأولى ولكن ليس حصراً . المعرفة الإسلامية، التي يعد القرآن مركزها، كما يدرس كل ما يحف بها من مواضيع مناهج التفسير والفقه والحديث واللغة والقواعد.

ولذا تقع إجادة اللغة الفصيحة في الصميم من دراسة الأزهر الإسلامية، للعرب وللمسلمين الآخرين. لأن المسلمين يعدون القرآن كلام الله غير المخلوق و"المنزل" على النبي محمد في الوحي ومنذئذ تقدست لغة القرآن ، و غدت تحتوي على قواعد و تصريفات إلزامية للناطقين بالعربية على الرغم من أنهم، وبصورة مفارقة نوعا ما، لا يستطيعون تقليد لغة القرآن ، لسبب ديني هو "الإعجاز".

منذ ستين عاماً، والناس تستمع للخطباء و ماانفك البعض يعلق على تصحيح لغتهم، وعلى ما كان عليهم قوله كذلك. عندما ألقيت محاضرتي الأولى في العربية، بالقاهرة، منذ عقدين، اقترب أحد أقاربي الشباب مني، بعد أن أنهيت المحاضرة، ليخبرني بمدى خيبة أمله في أنني لم أكن أكثر بلاغة مما كنت. "ولكنك فهمت ما كنت أقوله" سألته بنبرة شك . فقد كان هاجسي الرئيس هو أن أكون مفهوماً بصدد بعض المسائل الحساسة في السياسة والفلسفة "آه، نعم، بالتأكيد" أجابني بنبرة مستخفة " ليس ثمة مشكلة، ولكنك لم تكن بليغاً بما فيه الكفاية، أو مفوها ".

مازال هذا اللوم يلاحقني حين أتحدث أمام الجمهور. فلست بقادر على أن أتحول إلى خطيب بليغ وانا أمزج التعابير اللهجية والفصيحة بأسلوب براغماتي و بنتائج مخففة. ومثلما أشار لي البعض مرة، بمودة، بأنني أشبه بشخص يمتلك سيارة رولز رويس، بيد أنه يفضل استخدام سيارة فولكس فاغن.

وفي غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة فقط اكتشفت الأمر: ان أفضل وأنقى وأميز ما قرأت و سمعت في النثر العربي مكتوب على يد روائيين (وليس نقادا) مثل الياس خوري، وجمال الغيطاني، أو على يد أعظم شاعرين من شعرائنا الأحياء، أدونيس ومحمود درويش: إذ يبلغ كل واحد منهم، في قصائده، مرتقيات ملحمية سامية سمواً يسحب قراءهم، ومستمعيهم إلى حالة اهتياج من الافتتان الحماسي.

النثر عند هؤلاء الكتاب و الشعراء ، أداة أرسطوية حادة مثل شفرة. تبلغ معرفتهم باللغة من السعة والتلقائية، ومواهبهم من القوة، مبلغاً يمكنهم فيه أن يكون بلغاء وواضحين في أن واحد، من دون أن يكونوا بهم حاجة إلى كلمات حشو، أو أطناب متعب، أو زخرف فارغ. بينما يلزمني، أنا، الذي لم أدرس في كنف المنظومة المدرسية الوطنية العربية (في مقابل المنظومة الاستعمارية)، أقول يلزمني أن أبذل جهوداً واعية كي أصوغ جملة على نحو صحيح وواضح بالعربية الفصيحة وبحصيلة ليست مقنعة دائماً، في حدود اللباقة، وهو أمر علي أن أعترف به حقاً..

كتب

إلى مَ آلت أحوال المنطقة بعد تلك الثورات؟

ترجمة واعداد: فالح حسن

شهدت خمسينيات القرن المنصرم إنعطافة في تاريخ العالم العربي في المستوى السياسي الذي اثر تأثيرا مباشرا على البناء الاقتصادي والاجتماعي في مناطق لها أهميتها جيوبوليتيكيا: ففي العام ١٩٥٢ تقوم ثورة نجيب وعبد الناصر لتطيح بحكم الملك فاروق، ويظهر التيار القومي الناصري؛ وفي العام ١٩٥٨ يسقط الحكم الملكي في العراق بثورة خطط لها ونفذها ضباط من الجيش العراقي بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم ذي الميول اليسارية. ولم يكن العام ١٩٥٨ معلَماً في التاريخ العراقي وحده، فقد شهد نزول قوات المارينز في بيروت، والجنود البريطانيين في عمان. هذه الأحداث وصفت على أنها أزمة في تاريخ الشرق الأدنى من وجهة نظر ثلة من الباحثين البريطانيين والأميركان الذين شكلت دراساتهم مادة كتاب " عام ثوري: الشرق الأوسط في العام 1958 A Revolutionary Year. The Middle East in 1958"/ لندن 2002.

يربط الكتاب بُعد المنطقة النفطي بالتحركات الغربية فيها، كما يتناول إستراتيجيات الاتحاد السوفييتي وإسرائيل. ومن الدراسات التي تشد الانتباه، دراسة "رشيد الخالدي" التي تمحورت على تصور المسؤولين الغربيين للمنطقة والفاعلين فيها. إذ يرى أن عجز الأميركان والبريطانيين في تلك الحقبة عن فهم الأسباب الداخلية لثورات العالم العربي، يرد إلى انغماسهم التام في المواجهة مع الاتحاد السوفييتي. ولهذا ربما لم يعوا أن قيام النظام الجمهوري في العراق كان يمثل قبل كل شيء رفضاً للنظام الملكي الذي نصبه الأجنبي وكان غريبا عن نسيج المجتمع العراقي، وما كانت الثورة بدفع من موسكو الشيوعية. لكن بعد انقضاء قرابة النصف قرن على تلك الأحداث، هل تغيرت الأمور في المنطقة حقاً ؟ تحاول مجمل الدراسات الإجابة على هذا التساؤل الذي يبدو انه الهاجس الذي دعا لوضعها.

الشرق الأوسط : طريقة التعامل

منذ زمن طويل كانت منطقة الشرق الأوسط هدفا لدراسات لا تحصى، تعرضت لشتى اوجه الحياة فيها (دينية، اجتماعية، سياسية، اقتصادية، الخ). ومع تداخل العلوم وبروز علوم الإنسان والمجتمع بوصفها الأكثر التصاقا بالواقع، وغالبا ما تأتي بنتائج علمية قابلة للتطبيق على المجتمعات التي تدرسها، تبنى الباحثون مناهج تلك العلوم في معالجة قضايا الشرق الأوسط في هذه المرحلة الهائجة التي يجتازها العالم اجمع، بخاصة أن هذه المنطقة تُعد عنصرا أساسيا في ما يحدث. على أن كثرة ما قيل عنها أدى إلى تناسي عدد من معطيات المنطقة الأساسية.

"الشرق الأوسط: طريقة التعامل" عنوان طريف لكتاب صدر بالفرنسية للكاتبة انييس لوفالوا

باريس ,٢٠٠٢ و تأتي طرافته من أن الأمر يتطلب جرأة كبيرة للادعاء بتقديم طريقة للتعامل مع هذا "الشرق المعقّد" في أقل من ٢٥٠ صفحة ! إن معرفة الكاتبة باللغة العربية وثقافاتها معرفة واسعة، ساعدها على اصطحاب القارئ برحلة في عمق المجتمعات العربية حيث القضايا السياسية تتجاور مع حياة الناس اليومية، من دون إغفال التعرض للمظاهر الثقافية العربية من أدب وموسيقى وشعر، محاولة منها لعرض واقع الشرق بطريقة هادئة بغية التوصل إلى إيجاد سبيل للتفاهم معه.

المجتمع العراقي: الجماعات ، والسلطات ، والعنف

لفّت المعرفة بالمجتمع العراقي عتمة شديدة غيّبت حقائقه حتى لدى المجتمعات العربية في الأقل في الثلاثين سنة الأخيرة. ولعل المسؤول عن ذلك هي الدعاية السياسية في تبسيطيتها. تزيدها التمثيلات الأيدلوجية التي تروجها وسائل الإعلام.

ومن النشاطات التي تكرّست لـ"إجلاء الملف العراقي"، يحاول الكتاب الذي حمل عنوان " المجتمع العراقي: الجماعات، والسلطات، والعنف "/باريس ٢٠٠٣، من خلال دراسات تخص الشأن العراقي ساهم بها باحثون فرنسيون وعراقيون، في ندوة عقدت في كانون الأول من عام ٢٠٠٢، وجمعها هشام داود وحامد بوزارسلان. وقد نوهت مقدمة الكتاب إلى "الضعف الكمي والنوعي" للدراسات التي تتعرض للعراق وبنى السلطة فيه منذ ثلاثين عاما، حتى اصبح هذا البلد " ثقبا اسود " في مساحة ما كُتب عن المنطقة. عليه، توسلت دراسات الكتاب بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة لفحص المجتمع العراقي فحصاً علمياً من أجل تقديم صورة واقعية عنه؛ حيث حللت الدراسات، كل حسب المقاربة التي تبنتها، "العشائرية" المكوّنة للمجتمع العراقي، والمجتمع المدني، و"الجماعات" والعلاقات فيما بينها، وممارسات سلطات الدولة، وموقع العراق في المخيالات الإقليمية. وهذا ما جعل الكتاب زاخرا بمادة جوهرية تعين على فهم المحركات التاريخية التي شكلت عراق القرن العشرين، والتي يبدو أنها تلوح بمستقبل غامض وخطر. وفي ما يخص شروط انبثاق الديمقراطية في هذا البلد، يرى عصام الخفاجي في دراسته أن من لوازم بناء الديمقراطية هو تحرير المجتمع العراقي . والمجتمعات النفطية المجاورة . من تأثير الإيراد النفطي الساحق والمباشر.

إنشاء العراق : الإخفاق في بناء أمة ونكران تاريخ

هذا عنوان دراسة وضعها توبي دوج/لندن ٢٠٠٣ ، يجري فيها مقارنة واضحة بين الاحتلال البريطاني للعراق بين عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٢، والاحتلال الأميركي في عام ٢٠٠٣ . يذكر الكتاب إن علاقة القوى بين الشعب المحتل وتكاليف الاحتلال المالية هي التي أرغمت البريطانيين على الإذعان لمبدأ مغادرة سريعة للبلاد. عندها، نقلوا السلطة إلى مجموعات اجتماعية ظنوها قادرة على إرساء النظام بأدنى التكاليف، وأسسوا نسق سلطات تلجأ إلى العنف المستمر بهدف بسط السيطرة على الشعب. والممتع في هذه الدراسة هو تصور الكيفية التي بها سعى المخيال السياسي البريطاني، وهو مخيال تغذى من تجربة الحدود الشمالية الغربية للهند، لإسقاط نظام اجتماعي صارم، قائم على النسق العشائري، على واقع اجتماعي عراقي متحرك. وتتقيد هذه المنهجية في تيار تجديد التاريخ الاستعماري. ويرى أن هذه متناقضات تسقط فيها الولايات المتحدة الآن في تعاملها مع الحقيقة العراقية. ومن دون أن يتجه الكاتب إلى وضع التاريخ والمجتمع العراقيين في مقولات هوياتية وجوهرية essentialists، يشير إلى أن ثمة سيرورات اجتماعية، متأسسة على التفاعل بين حقائق البلاد والهيمنة الأجنبية، هي التي تسمح بفهم التاريخ العراقي في القرن العشرين.